

الصيام بين التقليد والكتاب المقدس

بقلم
الدكتور القس
وديح ميخائيل إبراهيم

هل يحق لأي كنيسة كانت أن تشرع أو تقتن ؟

الجواب معروف لكل دارس للكتاب المقدس ، فالكنيسة – أى كنيسة – ليست هيئة تشريعية – إن جاز لنا هذا التعبير – فليس لكنيسة ما أن تضع قوانين أو تقاليد تحتم على أعضائها تنفيذها ، والرب يسوع لم يعط حتى للرسول أنفسهم سلطة التشريع ، لأن كل ما هو مطلوب من الكنيسة وأعضائها هو أن تنفذ المعلن فى كلمة الله ، وأن تخضع لهذا المعلن الإلهي " فكل الكتاب هو موحى به من الله ونافع للتعليم والتوبيخ والتقويم والتأديب الذى فى البر لكى يكون إنسان الله كاملاً متأهباً لكل عمل صالح " (٢ تيموثاوس ٣ : ١٦ ، ١٧) .

فالكتاب المقدس ، وليس التقليد هو صاحب السلطة الوحيدة للتشريع والتعليم وما يجب عمله وما لا يجب دون تدخلات بشرية من أي نوع .. والكتاب كامل من كل ناحية لا يحتاج إلى إضافة ، والإنسان المؤمن الذى نال خلاص الله بالحق ليس لإنسان ما عليه سلطان من أي نوع ، وليس لإنسان ما مهما كان مركزه الدينى أن يفرض عليه فروضاً وطقوساً من أي نوع ، والرسول بولس يكتب لجماعة كولوسى عن هذا فيقول " فلا يحكم عليكم أحد فى أكل أو شرب أو من جهة عيد أو هلال أو سبت التي هى ظل الأمور العتيدة – أي رموزاً لأمر مستقبل – وأما الجسد فللمسيح . لا يخسركم أحد الجعالة راغباً فى التواضع وعبادة الملائكة متداخلاً فى ما لا ينظره منتفخاً باطلاً من قبل ذهنه الجسدى " (كولوسى ٢ : ١٦) ثم يؤكد حرية المؤمنين الحقيقيين من الخضوع لأى طقس أو تقليد يفرضه الإنسان مهما كان هذا الإنسان فيقول لنفس الجماعة " إذأ فلماذا كنتم عانثون فى العالم تفرض عليكم فرائض لا تمس ولا تذوق ولا تجس التي هى جميعها للفناء فى الاستعمال حسب وصايا وتعاليم الناس .. ليس بقيمة ما من جهة إشباع البشرية " (كولوسى ٢ : ٢-٢٣)

والواقع أن التشريعات الكنيسة فيما يتصل بالأكل والشرب هى من علامات الأزمنة الأخيرة كما يكتب بولس الرسول لتلميذه تيموثاوس " ولكن الروح يقول صريحاً أنه فى الأزمنة الأخيرة يرتد قوم عن الإيمان تابعين أرواحاً مضلة وتعاليم شياطين فى رياء أقوال موسوفة ضمائرهم مانعين عن الزواج وأميرين أن يمتنع عن أطفمة قد خلقها الله لتتناول بالشكر من المؤمنين وعارفى الحق " (١ تيموثاوس ٤ : ١-٣) .

وهذا كله يقودنا إلى الصيام ، فما هو الصيام ؟ ولماذا الصيام ؟ وكيف يمارس ؟ هل يمارس الصيام بأمر كنسى أو هو متروك لروح الله فى المؤمن الذى يمارسه فى ظروف خاصة ؟ هذه الأسئلة وغيرها تدفعنا إلى التأمل المتأنى والدراسة الكتابية لكى نصل إلى رأى سليم صائب يتفق تماماً مع كلمة الله النقية .

ونحن نشكر الله من القلب لأنه لم يتركنا نتخبط ولا تركنا نستنتج . ولا تركنا نستحسن ما يجب وما لا يجب فى أي أمر يتصل بحياتنا الروحية .

فماذا تقول كلمة الله في موضوع الصيام ؟

هناك نوعان من الصيام ، صيام بالضرورة ، وصيام بالاختيار ، والنوع الأخير هو الأكثر إنتشاراً ، والعبارة الموجودة في العهد القديم وفي سفر اللاويين ١٦ : ٢٩-٣١ .. الخ والتي فيها ترد " **تذللون أنفسكم** " غالباً ما تستخدم هي نفسها بمعنى " صيام " ، والصيام بدأ في العهد القديم بعد السبي البابلي، والصيام يمكن أن يكون فردياً واختيارياً كما حدث مع داود حين مرض ابنه الذي من بتشبع وكان على شفى الموت ، أو صياماً للامه كما رسم ليوم الكفارة (نحميا ٧ : ٧٣ ، ٩ : ٣٨) وبعد العودة من السبي البابلي ظهر أربعة أنواع من الصيام (زكريا ٧ : ٣ ، ٨ : ١٩) أحد هذه الصيامات في الشهر العاشر يتذكرون فيه حصار أورشليم (٢ ملوك ٢٥ : ٢) وصيام آخر في الشهر الرابع يتذكرون فيه سقوط أورشليم (٢ ملوك ٢٥ : ٣ ، ٤) وصيام ثالث في الشهر الخامس في ذكرى خراب الهيكل (٢ ملوك ٢٥ : ٨ ، ٩) وصيام رابع في الشهر التاسع يتذكرون فيه قتل جدليا والبقية التي تركها نبوخذنصر في الأرض (٢ ملوك ٢٥ : ٢٥) وكان الفريسيون يصومون يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع ، وهذا ما أشار إليه الفريسي الذي جاء في مثل المسيح وقال في صلاته " **وأصوم مرتين في الأسبوع** " (لوقا ١٨ : ١٢) ، وكذلك كان تلاميذ يوحنا يصومون ولكن تلاميذ يسوع لم يصوموا (متى ٩ : ١٤ ، ١٥) ، والنتيجة اليهودية الحديثة تشير إلى (٢٢) صياماً بالإضافة إلى يوم الكفارة ، وأربعة صيامات لزكريا (٨ : ١٩) ، ثم صيام إستير ، والرب يسوع نفسه صام في البرية ولكنه لم يضع الصيام كعادة تمارس بقانون ، ولم يضع الصيام نظاماً لمجرد الصيام . (متى ٦ : ١٦ ، ١٨ الخ ..) والكنيسة الأولى مارست الصيام في ظروف معينة حساسة (أعمال ١٣ : ٢ ، ١٤ : ٢٣) كذلك بولس كان يصوم دون أن يفرض على آخرين أن يصوموا أو يأمر كنيسة من التي كتب لهم أن يمارسوا الصوم في أوقات محددة ومعينة أي أنه وهو الرسول لم يشرع صياماً من أي نوع وفي أي يوم أو يقننه (٢ كو ٦ : ٥ ، ١١ : ٢٧) وربما كان صيام بولس راجع إلى أنه كان فريسياً أصلاً .

فمن أين جاءت الكنيسة الطقسية بالصيامات العديدة التي فرضتها على الناس بهذه الطريقة في الامتناع عن أنواع معينة من الطعام ؟

ولكى نفهم حقيقة الصيام ينبغي أن نعرف معنى الكلمة لغوياً ، فماذا يقول القاموس العربي : " **صام صوماً وصياماً هو مطلق الإمساك أى كل ممسك عن طعام أو كلام فهو صائم** " فالصيام الصحيح المفهوم في اللغة من ناحية وفي الكتاب المقدس من ناحية أخرى يعنى الانقطاع الكلى عن أي طعام ، وهذا واضح في قول كرنيليوس لبطرس الرسول " **فقال كرنيليوس منذ أربعة أيام إلى هذه الساعة كنت صائماً** " (أعمال ١٠ : ٣٠) .
فماذا يعنى هذا الكلام ؟

إن معناها ببساطة هو أن كرنيليوس صام عن الطعام والشراب وانقطع عنهما بالكلية لمدة أربعة أيام .

والمعنى الروحي للصيام سجله أشعيا ، في سفره بهذه الكلمات " **أليس هذا صوماً اختاره حل قيود الشر . فك عقد النير . وإطلاق المسحوقين أحراراً وقطع كل نير . أليس أن تكسر للجائع خبزك وأن تدخل المساكين التائهين إلى بيتك . إذا رأيت عرياناً أن تكسوه وأن لا تتغاضى عن لحمك** " (أشعيا ٥٨ : ٦ ، ٧) .

فليس هناك معنى أن تكون حلفاً وشتاماً ومفترياً ، ونماماً ومغتتاباً للآخرين ، أو تكون سارقاً مرتشياً وكذاباً ثم تقول أنك صائم عن بعض أنواع من المأكولات ؟ أي سخرية هذه ، وأي سخرية هذه ، وأي سخافة في هذا الصيام العجيب الذى تشبع فيه جوعك بأنواع من الطعام لكن لا تشبع به روحك في تكريس وتعبد لله .

والصيام ليس (للمظهرة) أبداً وقد نهى عنه الرب يسوع في كلمات واضحة حين قال " ومتى صمتتم فلا تكونوا كالمرائين . فإنهم يغيرون وجوههم لكي يظهروا للناس صائمين . الحق أقول لكم قد استوفوا أجرهم . وأما أنت فمتى صمت فادهن رأسك وأغسل وجهك لكي لا تظهر للناس صائماً بل لأبيك الذى فى الخفاء فأبوك الذى يرى فى الخفاء يجازيك علانية " (متى ٦ : ١٦ - ١٨) .

ودعنا نحلل هذا الكلام الإلهي لعلنا نخرج منه ببعض الدروس :

١- يبدأ الرب كلامه بصيغة الجمع " ومتى صمتتم " ، ثم يطلب من الصائمين أن لا يفعلوا كالمرائين يعلنون عن صيامهم لكل الناس وبكل الطرق. وهذا يذكرنا بأن الصيام التقليدى ومناسباته معروف لدى العام والخاص ، بل أن الباعة يعرفون متى يبدأ الصيام وينتهى فى كل مناسبة ، وهذا يبعد الصيام عن أن يكون الصيام الذى أوصى به يسوع أى الصيام الذى لا يعرفه أحد سوى " أبيك الذى فى الخفاء . فأبوك الذى يرى فى الخفاء يجازيك علانية " .

٢- ينتقل الرب يسوع من صيغة الجمع إلى صيغة المفردى قوله " أما أنت " أي انه نقل المسؤولية إلى أكتاف الفرد الذى ينبغى أن " لا يظهر للناس صائماً " أي لا يعرفون أنه صائم بأى شكل كان ، فصيامه ليس للناس بل " لأبيه الذى يرى فى الخفاء " .

٣- لم يذكر هنا أى الأطعمة ينبغى أن تؤكل وأيها لا ينبغى أن تؤكل لأنه كما يقول الرسول بولس " كل خليفة الله جيدة ولا يرفض من شئ إذا اخذ مع الشكر ، لأنه يقدر بكلمة الله والصلاة " (١ تيموثاوس ٤ : ٤ ، ٥) .

وأنت لعلك تحتج قائلاً : ألم يأكل دانيال والفتية الثلاثة القطنى بدلاً من اللحوم المقدمة لهم ، ونحن نجيب : هذا حق ، وهذا ما جاء فى الكتاب المقدس حيث نقرأ قولهم لرئيس السقاة " جرب عبيدك عشرة أيام فليعطونا القطنى لنأكل وماء لنشرب " (دانيال ١ : ١٢) .

القطنى نوع من البقول ، لكن لماذا طلب دانيال وأصحابه هذا الطلب ؟ وهل فرضه عليهم أم فرضوه على أنفسهم ؟ وما هو سبب طلبهم لهذا النوع من الطعام ؟ حين نقرأ الإصحاح الأول من دانيال بكل الوضوح أن دانيال وأصحابه كانوا أسرى فى العاصمة البابلية ، وقد وقع عليهم الاختيار ليكونوا ضمن الذين يخدمون الملك .

حين نقرأ الإصحاح الأول من دانيال سنجد بكل الوضوح أن دانيال وأصحابه كانوا أسرى في العاصمة البابلية ، وقد وقع عليهم الاختيار ليكونوا ضمن الذين يخدمون الملك نبوخذنصر ومملكته ، وفرض عليهم طعاماً خاصاً من مكوناته اللحوم التي كانت تذبح للأوثان ، ومن المعروف أن مثل هذه اللحوم محرمة على اليهودي ، واليهودي التقى لا يمكن أن يمد لها يداً ، وطاعة للوصية الإلهية " **وضع دانيال في قلبه أن لا يتنجس بأطياب الملك ولا بخمر مشروبه** " هو وأصحابه فطلبوا إلى رئيس السقاة أن يستبدل طعامهم بالبقول .

ونسأل هل كان هذا صوماً ؟

والجواب القاطع المانع : كلا ، لم يكن صوماً ، ولكن كان طعاماً فرصته الظروف التي كان فيها دانيال وأصحابه ، أو تظن أن البابليين كانوا سيعطون لدانيال وأصحابه ذبائح يذبحونها حسب الشريعة اليهودية ؟!

ولكن حين قرر دانيال أن يصوم لظروف محدد هو اقترب نهاية السبي يقول " **فوجهت وجهي إلى الله السيد طالباً بالصلاة والتضرعات بالصوم والمسح والرماد** " (دانيال ٩).

وهنا نلاحظ أن دانيال " صام " أي انقطع عن الطعام بالكلية ولكن لا نجد أصحابه يشاركونه هذا الصوم ، وكأن دانيال يعمل – قبل الوقت بكلمات الرب يسوع " **أما أنت فمت صمت** " . ولم يكن صيامه كما نرى امتناعاً عن أي نوع من الأطعمة دون الأخرى .

والصيام مورث في مناسبات مثل كارثة وطنية كما حدث حين مات الملك شاول ويوناتان ابنه في الحرب ونقرأ عن هذا " **فأمسك داود ثيابه ومزقها وكذا جميع الرجال الذين معه . وندبوا وبكوا وصاموا إلى المساء** " (٢ صموئيل ١ : ١١ ، ١٢) ومن القول " إلى المساء " ندرك أنهم لم يأكلوا طعاماً إلى أن حل المساء ، ونعود ونكرر القول أن هؤلاء الذين صاموا هم الذين فرضوا الصوم على أنفسهم لظرف معين ولم يفرضه عليهم أحد ، ولم يتكرر ثانياً حتى في ذكرى المناسبة الحزينة التي حدثت .

ونعود إلى كلمات الرب يسوع " **أما أنت فمتي صمت** " وهذا يعنى أول ما يعنى الحرية الفردية في اختيار وقت الصيام ، فهو ليس فرضاً جماعياً أو أمراً كنسياً ، ولكنه حرية شخصية تفرضها ظروف روحية على الإنسان المؤمن :

فهو يصوم حين يقع في ظرف ضيق

ويصوم حين تحيط به تجربة

ويصوم حين يريد تكريساً أكثر في حياته الروحية .

ويصوم حين يقوم على أمر يمسه حياته من قريب ويصوم في كل هذه الظروف وغيرها الكثير تحت إرشاد وقيادة الروح القدس ، وليس في صيامه هذا مباحة أو مراعاة " **لكي يظهر للناس صائماً بل لأبيه الذي يرى في الخفاء** " .

ولعلك تقول : ما قولك في كلمات الرب يسوع " **ستأتي أيام حين يرفع العريس عنهم فحينئذ يصومون في تلك الأيام** " (لوقا ٥ : ٣٥) ونفس الكلام يتكرر تقريباً في (متى ٩ : ١٥) .

ولنتأمل معاً بذهن مفتوح هذه الكلمات الإلهية :

هذا الكلام كان رداً على تلاميذ يوحنا الخاضعين للناموس من ناحية ، كما كان رداً على الفريسيين المحتجين من ناحية أخرى ، ويسوع يشير إلى صيام تلاميذه حين " يرفع العريس عنهم " وقد اخذ البعض هذا الكلام بمعنى ارتفاع المسيح إلى السماء وتركه للأرض ولكن هل هذا هو معنى (الرفع) ؟ تعلاً نقرأ معاً في إنجيل يوحنا كلمات الرب يسوع نفسه وتفسيرها بالروح :

" الآن دينونة هذا العالم . الآن يطرح رئيس هذا العالم خارجاً . وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجدب إلى جميع . قال هذا مشيراً إلى آيه ميته كان مزماً أن يموت " (يوحنا ١٢ : ٣١ ، ٣٢) .

إذن (الرفع) المقصود هو (الرفع) على الصليب ، وفي ذلك الوقت وفي تلك الظروف كان على التلاميذ أن " يصوموا " ، والمتأمل في سفر الأعمال . وهو سفر الكنيسة ، لا يجد أن الرسل بعد يوم الخمسين صاموا أياماً معينة لذكرى الصليب وارتفاع سيدهم وفاديتهم عليه ، كما لا نجد في كل الرسائل أي إشارة إلى مثل هذا الصيام ، لأن ذكرى الصليب والقيامة إنحصرت في فريضة " عشاء الرب " كما يقول الرسول بولس " فإنكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس تخبرون بموت الرب إلى أن يجئ " (١ كورنثوس ١١ : ٢٦) .

ونعود للسؤال هل رُفِعَ الرب يسوع من بين شعبه ، وهل غيابه بالجسد يعنى غيابه بالكلية ؟ فكيف إذن نفسر كلماته " لأنه حينما اجتمع اثنان أو ثلاثة بأسمى فهناك أكون في وسطهم " (متى ١٨ : ٢٠) بالإضافة إلى وعده الكريم المشجع لكل المؤمنين به على مر العصور " ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر " (متى ٢٨ : ٢) ، وهذا ينفي بالتمام الفكر القائل بارتفاعه بعيداً عن المؤمنين به .

إذن صام التلاميذ لظرف معين هو الصليب ، ولكنهم لم يصوموا بعد ذلك للذكرى .

وفي ضوء الذى قلناه من الكتاب المقدس نسأل :

- من أين جاء الصيام الذى قبل العيدين – الميلاد والقيامة - ؟
- ومن أين جاء صيام يونان الذى صامه يونان غصباً فى بطن الحوت وما علاقة المسيحيين به ؟
- ومن أين جاء صيام العذراء الذى لا نقرأ عنه مجرد لمحة فى كلمة الله ؟
- ومن أين جاء صيام الرسل الذى لم يذكره سفر أعمال الرسل ولا الرسائل التى كتبوها ؟

نحن لا ننفي الصيام بهذا الكلام ، ولكننا نؤكد ما يعلمه الكتاب المقدس المنزه عن الخطأ " أما أنت فمتى صمت " ، فالصيام أمر شخصى بحت ، يمارسه الفرد فى ظروف مختلفة كما ذكرنا آنفاً ، والصيام يعنى – لغوياً – الانقطاع الكلى عن الطعام لمدة يحددها الصائم ولا تفرض عليه أحد ، لأن ليس لأحد حق التشريع بعد الكتاب المقدس .

فهل نتبع الكتاب .. كلمة الله الثابتة إلى الأبد أو نترك الكلمة الإلهية ؟

ولا ننسى كلمات الرب يسوع " قد أبطلتكم وصية الله بسبب تقليدكم . يا مراؤون حسنا تنبأ
عنكم أشعياء قائلاً : يقترب إلى هذا الشعب بفمه ويكرمنى بشفتيه وأما قلبه فمبتعد عنى بعيداً
وباطلاً يعبدوننى وهم يعلمون تعاليم هى وصايا الناس " (متى ١٥ : ٦-٩) .